الباب السابع عشر

حيوانات تصوم

هذه حيوانات تمتنع عن الطعام أوقاتاً ،
أفلا تصوم أنت بعد ذلك أياماً

حيوانات تصوم كالإنسان

إن الإمساك عن الطعام ليس بقاصر على الإنسان وحده ... فهناك حيوانات تصوم في ظروف معينة ، وأغلب الطيور تمتنع عن تناول الطعام حينما تقوم بحضانة البيض .. والزواحف والثعابين تنطوي على نفسها مدة طويلة ولا تتناول طعامًا ... وذلك ما يُعرف بالبيات الشتوي .

معجزة الدب الأبيض :

ومن معجزات اللَّه في خلقه ما أرويه للقارئ عن معجزة (الدب الأبيض) كما جاء في كتاب « غرائز الحيوانات » للأستاذ (محمد فياض) :

والدب الأبيض أقوي الحيوانات التي تعيش في المنطقة المتجمدة الشمالية، وأضخمها جثة وقد يبلغ طوله في بعض الحالات ثلاثة أمتار ، ووزنه سبعة قناطير ... وهو يعوم بسهولة في الماء ويعدو بسرعة على الجليد ويتسلق أكوامه العالية ، ومن دواعي الدهش أن مثل هذا الحيوان الكبير الجسم ، الثقيل الوزن ، يتحرك بخفة فوق الجليد الأملس دون أن ينزلق ، ويرجع السبب في ذلك ، إلى أن باطن قدمه العريضة ، مزودة بخصلة من الشعر الطويل الخشن ، الذي يثبتها فوق الجليد ويمنع انزالقها .

وهو يتغذى بالأسماك وعجول البحر ... التي يصطادها بنفسه ... وبجثث الحيتان الميتة التي يقذف بها البحر إلى الشاطيء .

وفي الصيف عندما تظهر الخضرة في البقاع الشمالية يضيف الدب إلى غذائه أثمار التوت وبعض البقول والأعشاب . وفي الشتاء حيث تنقرض الخضرة ويندر الغذاء يأكل الدب كل ما يصادفه من أعشاب بحرية وأوراق جافة وأخشاب وغير ذلك .

(والمبيت الشتوي) مقصور على الأنثى التي تدفن نفسها تحت الجليد ، وتقضي شهور الشتاء في (سبات عميق) وفي هذه الفترة تلد ... وفي العادة تضع صغيرين وتغذيهما بلبنها الذي يتدفق من ثديها بغزارة .

وهي لا تخشى الاختناق تحت غطائها السميك من الجليد ، لأنها تترك فيه

منفذا يتسرب منه الهواء إليها . . . ويظل هذا المنفذ مفتوحًا لا يسده الجليد ، وذلك بتأثير أنفاسها الساخنة والحرارة المنبعثة من جسمها .

وبالرغم من أنها تصوم أثناء مبيتها الشتوي فإن لبنها يدر بغير انقطاع لتغذية وليديها . . . وتعتبر هذه الظاهرة من المعجزات الإلهية . . . إذ كيف يتيسر لها أن تدبر هذا السيل المستمر من الغذاء بدون أن تتناول شيئًا من الطعام ؟

والسر في ذلك يرجع إلى ءلها أثناء الصيف تلتهم كميات وافرة من الغذاء الذي يتحول بعضه إلى طبقة سميكة من الدهن تحت جلدها . . . وفي الشتاء يؤدي هذا الدهن ثلاث وظائف ضرورية لحياتها ولذريتها . فهو يقيها البرد أثناء رقادها تحت الجليد . . . ويتحول جزء منه إلى غذاء صالح لها ويتحول جزء آخر إلى لبن يعول وليديها .

ووكالات الأنباء والصحافة العالمية ، تطالعنا أحيانًا بخبر عن رجل هندي يرقد في صندوق معدني ، مصنوع بطول جسمه وعرضه . . . ويأتي أعوانه فيغطون الصندوق ، ويحكمون إغلاقه ويضعونه في قاع حمام السباحة ، ويتركونه تحت الماء ساعة كاملة ، ثم يرفعونه ويفتحونه فيرى النظارة الرجل الهندي حيًا لم يصبه أذى . . . وقد حاول بعض العلماء تفسير هذه الظاهرة فقال: إن (الأوكسجين) المحتوي عليه الصندوق يكفي للتنفس طول المدة التي يظل فيها تحت الماء وإن بخار الماء وثاني أوكسيد الكربون المتولدين من التنفس في هذه الفترة لا يكفيان لإحداث الاختناق .

وربما كان هذا التعليل صحيحًا ولكن لم يجرؤ أحد على اختبار صحته بطريقة علمية . . .

ومهما كان السر في هذه العملية . . . فإن هذا الساحر الهندي يعجز عن محاكاة أنثى الدب الأبيض ، لأنه لا يستطيع أن يدفن نفسه في الجليد طول شهور الشتاء ، ويعمل على استمرار تنفسه ، ويدبر أمر تغذيته مع طفلين راقدين بجانبه . . . ، ثم يخرج بعد ذلك حيًا لم يمسه الضرر . . . إلا أن في خلق اللَّه أسرارًا تحار في إدراكها عقول البشر ونواميس أحكم اللَّه وضعها وتنسيقها وصدق اللَّه إذ يقول :﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٤٩ ـ ٥٠] .

طائر البطريق ومدرسة الحضانة :

في الأقاليم الباردة الجنوبية يعيش نوع من الحيوان يسمى (البنجوين) أو (طائر البطريق) وأشهر مواطنه (رأس هورن) بجنوبي أمريكا وجزائر (فرلكلاند) ورأس الرجاء الصالح و(نيوزيلاندة) واستراليا . . وجزر المحيط المتجمد الحنوبي، وبالرغم من أنه يعتبر من الطيور فهو لا يستطيع الطيران ، لأن جناحيه لا يقويان على حمله وهي أشبه بزعنفتين كبيرتين ،وقد يستعين بهما وبقدميه العريضتين ذات الأغشية الممتدة بين الأصابع ، على السباحة في الماء .

ومن دأبه أنه يقف منتصبًا على قدميه ويمشي على هذه الصورة . . . وإذا حاول السير بسرعة اختل توازنه وهوى على الأرض . . . وهو إذا غضب ضرب بمنقاره وبجناحيه القويين الثقيلين . . . وغذاؤه مقصور على الأسماك وهو يستطيع صيدها بسهولة لأن له قدرة عجيبة على السباحة والغوص في الماء .

وبما أنه يعيش في أشد بقاع العالم برودة فقد وهبه اللَّه ـ سبحانه ـ وقاء يحميه من البرد القارس ، فتحت كسائه الخارجي من الريش طبقة سميكة من الدهن ، كما غطى ريشه بغشاء زيتي يحول دون وصول المطر إلى جلده .

وهو يقضي أيامه ولياليه في البحر بين الثلوج والأمواج المتلاطمة ، ولا يقيم على البر إلا عندما يضطر لوضع البيض وتربية الصغار وفي الغالب يكون هذا في أوائل صيف المنطقة المتجمدة الجنوبية . . . وتضع الأنثى بيضتين في وكر من الحصى ، وتحتضنهما بالتناوب مع زوجها . . . وبعض مضى خمسة أسابيع يخرج منهما فرخان كبيران شرهان .

ويغذيهما والداهما من الأسماك والحيوانات المائية الرخوة التي يحملانها إليهما من البحر ، وينمو جسدهما إلى عشرة أمثاله في أسبوعين . . . ومثل هذا النمو السريع يستلزم كميات وافرة من الغذاء . . . ولذا يصرف الوالدان معظم وقتهما بين البحر والوكر منهمكين في صيد كميات كبيرة من الأسماك . . . وفي غيبتهما قد يتعرض الفرخان لخطر كبير ، فقد تخطفهما بعض الطيور الجارحة ،

وقد يتحركان خارج الوكر ويضلان السبيل فلا يستطيعان العودة إليه ويموتان جوعًا لندرة وجود الغذاء على الصخور والثلوج وقد تدوسهما أقدام الطيور الكبيرة .

ولدفع هذه الأخطار يلجأ طيور (البنجوين) إلى حيلة غريبة تصون بها صغارها التي بدأ النشاط يدب فيها . . فتجمعها في مكان خاص ، ويتعهد فريق من كبار الوالدين بحراساتها والدفاع عنها مع السماح لها بالتحرك واللعب ، داخل نطاق محدود . . بينما يتعهد فريق آخر بشئون التغذية ، وقد يكون بين الفريق الأول متطوعون ليس لهم أبناء . . وقد يقوم أفراد من الفريق الثاني بتغذية صغار لا تجمعها به صلة . . مثل هذه الطريقة في الحراسة والتغذية لا تبعد كثيرًا عن النظم المتبعه في مدارس الحضانة عند الإنسان فسبحان ﴿ الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى ﴾ .

وعندما يكتمل نمو الأفراخ تصوم عن الأكل وتذهب إلى شاطيء البحر . . . وتبقى هناك حتى تسقط عنها آخر خصلة من الزغب ، ويصبح جسمها مغطى بالريش ، وعندئذ تثب في الماء والثلوج ، وترحل عن البر مبتعدة عنه مئات الأميال ،وتعيش على الأسماك التي تلتقطها من البحر . . وبعد مضي سنتين تدفعها الغريزة نحو البر ، لوضع البيض وتنشئة الصغار . . وإذ ذاك تصوم عن الأكل شهرًا كاملاً حتى تظهر الأفراخ . . وبعد أن يهجرها أبناؤها إلى البحر يسقط عنها ريشها وينمو غيره ، وأثناء هذه الفترة من التغيير الجثماني تنقطع عن الغذاء . . فهذا الطيور تصوم قبل أن تلقى عليها مسؤلية الأبوة . . وتصوم قبل أن تستقل بالجهاد في حياتها . . وتصوم بعد أن يتركها أبناؤها .

ولا شك أن الصيام ضروري لها كما هو ضروري لبعض المخلوقات ومنها الإنسان .

الصحة والجمال والرشاقة :

ذكر المؤرخ الإجتماعي المشهور (عبد الرحمن بن خلدون) في مقدمة تاريخه المعروفة فضلاً كاملاً ذكر فيه (أثر الجوع في صلاح البشر وأخلاقهم)

نقتطف منها للقاريء هذه السطور :

« إن كثرة الأغذية ورطوبتها ، تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد أقطارها وضخامتها من غير نسبة كما ينشأ عنها كثرة الأخلاط الفاسدة ، ويتبع ذلك انكشاف الألون ، وقبح الأشكال من كثرة اللحم ـ كما قلنا ـ وتغطي الرطوبات على الأذهان والأفكار ، بما يصعد على الدماغ من أبخرتها الرديئة فتجيء البلادة والغفلة والانحراف عن الاعتدال والجمال . .

واعتبر ذلك في حيوانات القفر . . ومواطن الجدب . . (من الغزال ، والزرافة والمها ، والحمر الوحشية ، والبقر الوحشي) مع أمثالها من حيوان التلول والأرياف ، والمراعي الخصبة كيف تجد بينها بونًا بعيدًا ، في صفاء أديمها، وحسن رونقها وأشكالها ، وتناسب أعضائها ، وحدة مداركها ؟

فالغزال أخو الماعز ، والزرافة أخت البعير ، والحمار والبقر ... أخو الحمار والبقر : والبون بينهما ما رأيت . .

« وما ذاك إلا لأجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والأخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره . . والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ما شاء » (واعتبر ذلك أيضًا في الآدميين) ويؤكد ما ذكره (ابن خلدون) ما جاء في الحديث الصحيح : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه . بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه.. فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه »[رواه أحمد عن المقدم ابن معد يكرب][1] .

(١) صوم بعض الحيوانات أثناء فترة النزو الجنسي :

مثل ذلك : سمك السلمون :

إن هذا النوع من السمك ، حين يبدأ بالهجرة من البحار نحو الأنهار للتكاثر ، وتكون عضلاته محملة بكميات كبيرة من الشحوم ، لذلك تراه يصوم خلال فترة الهجرة والرحلة هذه ، يكون جسمه قد هزل وطرأت عليه نحافة

(١)من مقالة الصوم ضرورة صحية واجتماعية للإنسان والحيوان والطيور البرية والبحرية « الوعي الإسلامي» العدد ٣٣٧ رمضان ١٤١٤ هـ.

شديدة ، هذا وإن تخلص هذا الحيوان من هذه الشحوم يكسب هذه العضلات مرونة وقوة فريدتين ، الأمر الذي يساعد على اجتياز المسافات البعيدة ومعاكسة مجرى تيارات الأنهار .

* وهناك بعض الطيور تصوم أيضًا أثناء فترة التكاثر والنزو ، ومنها طائر البنغوان وذكر الأوز ..

* صوم الثديات : « حيوان الفقمة » :

ونذكر هنا صوم ذكر حيوان الفقمة ذى الفرو، الذي يعيش في منطقة آلاسكا إن هذا الحيوان يبقى من منتصف شهر آيار وحتى آخر شهر تموز دون طعام أو شراب بل ودون نوم أيضًا، وهذه الفترة تتوافق مع فترة التكاثر عند هذا الحيوان وهو يمضي كل وقته ساهرًا يرعى زوجاته اللآتي يتراوح عددهن بين ٥ ـ ٦ زوجات. بعد هذه الفترة الطويلة من الصوم، ينام هذا الحيوان مدة ثلاثة أسابيع متواصلة إذا لم يزعجه أحد، وبعد ذلك يأخذ بتناول غذائه على الشكل المعتاد.

* أسد البحر :

وكذلك أسد البحر الذي يصوم أيضًا أثناء فترة النزو ، وحياة هذا الحيوان تشبه تمامًا حياة حيوان الفقمة .

(٢) الصوم بعد الولادة :

* بعض أنواع العنكبوت لا تأكل شيئا خلال فترة الأشهر الستة التي تعقب الولادة .

* كما أن الصيصان : لا تأكل ولا تشرب شيئا خلال الأيام الثلاثة التي تلي خروجها من البيضة .

* وكذلك الحال عند كثير من الثديات ، حيث لا يبدأ الثدي بإفراز الحليب إلا بعد ثلاثة أيام من ولادة الأم لصغيرها .

(٣) صوم الخادرة :

الخادرة هي حشرة في الطور الانتقالي بين اليرقة والحشرة الكاملة . وهذه

المرحله عند الحشرات هي المرحلة التي تلي تمامًا مرحلة اليرقة . وفي هذه المرحلة لا تتحرك الحشرة إلا قليلاً جدا ، ولا تأكل شيئًا على الإطلاق ، إذا تعتمد على مدخراتها الموجودة لديها قبل الدخول في هذه المرحلة .

(٤) الصوم حين يكون حس الجوع غائبا :

إن كثيرا من الحيوانات تتناول وجبات غذائية متباعدة جدا ، والسبب في ذلك أنه ليس لديها شعور بالجوع ، فمثلا بعض أنواع الثعابين لا تأكل وجباتها الغذائية إلا بعد فاصل زمني طويل .

(٥) الصوم في حالات الغضب :

ونذكر في هذا المجال ، الصوم الذي تمارسه الكلاب حزنًا على صاحبها حين يموت .

(٦) الصوم في حالة الأسر :

بعض الحيوانات ترفض تناول الطعام أسيرة مقيدة ، فهي تفضل الموت جوعًا ، كما يقول العالم « باتريك هنري » : «أعطني الحرية أو أعطني الموت».

(٧ ، ٨) الصوم في حالة المرض ، أو حين الإصابة بجرح :

كما يفعل الحصان عند مرضه ، والكلب عند إصابته بكسر .

(٩) الصوم عند فقدان الغذاء .

(١٠) السبات الشتوي عند الحيوان : الأفاعي ـ الحلزون ـ الذباب ـ الزلاقط الدببة ـ التمساح :

هذه أصناف من الحيوانات تدخر ما يلزمها لفصل الشتاء في داخل عضويتها ، وهذا ما نسميه بالمدخرات الداخلية .

وتقضي هذه الحيوانات فصل الشتاء وهي شبه نائمة ما يقلل الحاجة إلى المواد الغذائية إلى حد كبير .

(١١) السبات الشتوي عند النباتات :

«بعض النباتات تدخر في أجسامها كمية كبيرة من الغذاء كاللفت والبصل

مثلا ، وهذه المدخرات تكفيها لتبقى حية فترة طويلة من الزمن دون غذاء »[١] .

أخي : إن كانت الحيوانات تمتنع أحيانًا عن الطعام أفلا تصوم أنت ، قال ﷺ : «خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمنون ، ويحبون السِّمن ، ويعطون الشهادة قبل أن يسألوها »[٢] .

* * *

---

(١) نقل باختصار من كتاب « التداوي بالصوم » (١٧ ـ ٢٢) تأليف هـ .م شيلتون دار الرشيد دمشق بيروت .

(٢) صحيح : رواه الترمذي والحاكم عن عمران بن حصين وصححه الألباني في «صحيح الجامع » رقم (٣٢٩٤) .